صلة الجاهلية بالعالم القديم (١)

(١)

سادتي الاماثل : السلام عليكم ، اما بعد فقد ابى المجمع العلمي الكريم إلاّ ان يحفزني الى القول ، ويخرج بي من سدفة العزلة ، فنزلت على حكمه المطاع ، وارهفت من غرب اليراع ، وبعد فمن ذا الذي يدعوه العلم فيجمجم ، ويهيب به الأدب فيحجم .

ايها السادة : لقد وقع اختياري على نبذة لي انشأتها عن « العصر الجاهلي وموقف اهله من العالم القديم في السياسة والتجارة » ولقد توفرت على استقراء ذلك من امهات الكتب الغربية ، وفي اللمع المبثوثة بين تضاعيف المؤلفات العربية .

تعريف العصر الجاهلي

لا جرم ان للعرب صلتهم السياسية والاقتصادية بالامم الغابرة ، وذلك ما اود ان اجمله في هذه المحاضرة ، فالعرب امة عريقة في المجد والسؤدد ، ترجع في نسبتها الى الدوحة السامية ، وكذلك اللسان العربي سواء اكان قحطانياً ام عادياً .

ويراد بالعصر الجاهلي ما كان عليه العرب قبل الإسلام من دأب وسيرة ، وقال ابن خالويه انه اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة ، وما تعدو تلك الحقبة في التاريخ المتداول مئة وخمسين عاماً قبل الهجرة عند جمهرة الأدباء ، وان ذلك ليكون صحيحاً لا غبار عليه اذا عنينا بأولئك العرب « اهل الحجاز ونجد » فقد كانوا الى مدى غير بعيد عن الشعوب بمعزل ، لما في باديتهم من جدب ، وما في طباعهم من عنجهية ، ولم يرزقوا حظاً من الشهرة وترامي الذكر الا بعد ان تحولت الى ارضهم الطرق التجارية ، فحملتهم على الاتصال بالأمم الأخرى ، واغرتهم بعقد الاسواق في عكاظ ومجنة وذي المجاز ، فوق ما قيض لهم من طول صحبتهم للانباط الذين كانوا قد انتشروا بينهم متفرقين على أثر هزيمتهم في سلع .

قدم العرب

ومن الخطأ المحض ان بعض الناس اذا ذكروا العرب في جاهليتهم ذهب بهم

(١) محاضرة ألقاها الشيخ فؤاد الخطيب في المجمع العلمي العربي بدمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الظن الى الأُمة قاطبة ، والى الامصار العربية باسرهـا ، فخلطوا بينها وبين القبائل الضاربة في اودية « الحجاز ونجد » على ان سائر العرب في اصقاعهم الأخرى الخصبة وقبل تلك الفترة الجاهلية بقرون متطاولة ، كانوا لدات الفراعنة ، والبابليين ، والآشوريين ، والرومان ، وحسبي ان ارجع بكم الى ذكر « بني عاد » فانهم اقتحموا مملكة الكلدان القديمة وحكموها ما يقرب من قرنين (سنة ١٥٤٦ قبل الميلاد) وكذلك « المملكة الآشورية » فقد خضعت للعرب البائدة فولي الأمر فيها تسعة ملوك منهم استتب لهم فيها الحكم ٢٤٥ عاماً كما يقولـ المؤرخ الكلداني بروسيوس ، ولما افضى الامر الى سرجون الأشوري قاتل بني ثمود وقضى بجلائهم الى مدينة غزة في فلسطين ، وكانت مواطن ثمود كما يقول بطليموس مدينة « اومن » في جنوبي العقبة الى الموبلح ، وكانت هذه البقاع من قبلهم لبني لحيان كما نص على ذلك الجغرافي بلينوس ؛ ثم ان الاسكندر الاكبر المكدوني يوم غزا مدينة غزة الفى فيها حكومة عربية من « بني معين » وكانت هذه القبيلة العربية العجيبة قد غادرت وطنها الأول في جوف اليمن وانتشرت في الالف الثاني قبل الميلاد في جميع انحاء الحجاز وهضاب سيناء ؛ ويعتقد الاستاذ « جلازر » ان الهكسوس الذين هبطوا مصر فاتحين ؛ انما كانوا من بني معين ؛ واما أثر بني معين في الشعوب القديمة فتوميء اليه نقوش مكتوبة ظهرت في مدينة « اور » في العراق ؛ ويقول العلامة هومل ان الخط العربي المسند هو الاصل الذي انشعب منه الخط الكنعاني ؛ ومن جملة أدلته على صحة ذلك ان هنالك نماذج من الكتابة المعينية وصلت الينا أقدم من أختها الكنعانية .

حظ سورية من العروبة

ان الرومان عندما افتتحوا سورية وجدوا بين أهلها العرب ؛ وان لهم فيها دولتين شامختين — أما الاولى فدولة الانباط في سلع المعروفة عندنا بالبتراء أخذاً من اسمها العربي ؛ والى عاملها على دمشق أشار بولس الرسول في الاصحاح الحادي عشر من رسالته الثانية الى اهل كورنثوس فقال :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« في دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكني فتدليت من طاقة في زنبيل من السور ونجوت من يديه »

أما الدولة الثانية فحكومة آل السميذع في تدمر ؛ ومن أشهر ملوكها اذينة الثاني زوج الزباء الطائرة الصيت ؛ وقد وقف الاستاذ ليتمن خلال التنقيب في النقوش الصفوية على اسم أذينة هذا مما يشعر بنباهة قدره ؛ وذيوع ذكره .

ثم انه لا يخفى عليكم ان احد رجال العرب قد تبوأ العرش الروماني فكان قيصراً للرومان ويعرف باسم فيلبوس العربي (٢٤٤ — ٢٤٩ م) وذلك أثناء احتفاء الرومان بذكرى الف سنة مرّت على تأسيس رومة .

ولعل من ادعى الامور الى الدهشة في هذا الوطن السوري الكريم ان سيادة العرب فيه كانت متصلة متتالية ؛ فلم ينتكث لها حبل ؛ ولا انطمس لها عهد ؛ فكلما انهدمت لهم دولة فيه ؛ نجمت اخرى مكانها ؛ فانه عندما انهارت المملكة النبطية ؛ نشأت بعدها التدمرية ؛ فلما تداعت أركانها ؛ قام بأمر العرب بنو غسان ، فلما استشرى الضعف فيهم ، اذن الله بظهور الاسلام ، فجمع كلمة العرب بعد الشتات والانقسام ، ونهض بهم من ذات الصدع ، الى ذات الرجع ، « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين » .

الموقف السياسي

وقد حان لي بعد تلك اللمحة الحثيثة ان أشرف بكم ايها السادة على الحالة السياسية في الحقبة الاخيرة الجاهلية ، وموقف العرب منها .

إنّ ما يعرف اليوم بالشرق الادنى ، كان قبل ظهور الاسلام العامل السياسي في الحرب الطاحنة بين فارس والروم ، لنشوب اكثر المعارك فيه ، ولأن مملكة الروم كانت في أمس الحاجة الى متاجر الهند ، وسائر آسيا ، وبلاد العرب نفسها ولذلك كان من مرامي فارس ان تجد مستقراً لها في بلاد العرب ، لخطورة ذلك الموقع من الناحية الجغرافية ، ولأن في طاقة فارس ان تنفذ منه الى غرضها فتمنع خيرات الشرق عن الروم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأما مملكة الروم فكانت تذود عن مصالحها بمحالفة الاحباش ، لما بين الروم وبينهم من أواصر الدين ، فكانت تغريهم باليمن وتقيم منهم في تلك الاصقاع السحيقة سداً دون مطامع فارس ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

فكان النفوذ السياسي في الشرق والجنوب من بلاد العرب لفارس ، وفي الغرب للروم ، وكانت مكة اميل الى هؤلاء منها الى خصمهم ، لصلتها التجارية بهم عن طريق سورية ، ولأن اكثر المكيين كانوا من القبائل الشمالية اي من بني عدنان ، أما يثرب فكانت لمكة بالمرصاد ، تنافسها في التجارة وتنقم عليها ثروتها الطائلة ، وكان أهلها من القبائل الجنوبية أي من بني قحطان .

لقد نزل العرب على تخوم فارس والروم في العراق وسورية منذ احقاب خلت فأكرهوا الدولتين فيما بعد على محالفتهم ، وأصبح للعرب عمال وامراء في المملكتين ، وكان كل قبيل منهم ينصر حليفه ، على ان العرب كانوا الفينة بعد الفينة يتناسون ما يبرم بين العاهلين من هدنة كما فعل القائد العربي الغساني المعروف باسم خالد في الغارة على عاصمة المنذر في العراق (٥٤٠ م) فانه لم يعبأ البتة بما كان بين الفرس والروم من مهادنة فشكاه كسرى الى جستنيان ، ولما لم يتلق منه جواباً ، أغار كسرى على اماسيا وحلب ومدن أخرى حتى كاد يكتسح سورية لو لم يهرع الروم الى طلب الصلح والنزول لكسرى عما استولى عليه من أمصار .

اما المملكة النبطية فكانت في الزمن الاخير أشبه بما نسميه اليوم (الدولة الحاجزة) ولكن الرومان غلب عليهم الجشع والطمع فلم يكترثوا لذلك فتيلا وقضوا عليها في عام ١٠٦ م ، وكان آخر ملوكها مالك الثالث بعد ان تعاقب عليها ما شاء الله من أزمنة بلغت ستة قرون او شيعها أدركت فيها الذروة من الحضارة والعمران ، ورواج الأسواق ، وقد اتخذت مدينة بصرى العربية من تلك الكارثة الفادحة بداية تؤرخ بها الحوادث جرياً على عادة العرب في مثل هذه الامور الجسام كعام الفيل ، وعام الخنان ، ونحو ذلك ، اما الرومان فقد رزحوا بعد زوال الانباط تحت مشاكل مرهقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكانوا في عجز فاضح عن سد الثلمة ، ورأوا من الصحراء حلبة نزاع دائم بينهم وبين القبائل البدوية بله المملكة الفارسية ، أما العرب فحمل لواءهم بعد الانباط آل السميذع في تدمر ، وتحولت الى تدمر الطرق التجارية حتى بلغت قمة المجد في القرن الثالث للميلاد ، وقبل ان ينتصر عليها الرومان كانت صحراء سورية تنغش مكتظة بالقبائل البدوية النازحة من جوف الجزيرة وأطراف العراق ، واصبحت المدن السورية عرضة للغارة عليها في كل أوان ، فعقد الروم حلفا مع بني غسان ونفحوهم بالهبات المالية واتخذوا منهم رداً لهم في النوازل والخطوب ، ثم تضاءل ما بين الامتين من سبب وذريعة ، فالعرب في صفاء نفوسهم ، ومقتهم للغدر ، قد طالما زلت بهم القدم ، واسلمتهم الفطنة ، وران عليهم من الروم الدس والختل ، فخشمهم ذلك من عنت البلاء ضروباً ، ومن أذى المحن افانين ، أما الروم فكان نصيبهم الويل وفت العضد ، وان تاريخ العترة الغسانية لمفعم بتلك الصور السافرة ، مترع بما يعززها من مشاهد متواترة ، وحسبي في الدلالة عليها ماسنح وطفّ من سيرة ملوك ثلاثة هم الحارث الرابع ، وابنه المنذر ، وحفيده النعمان .

الحارث الرابع

لقد كان الحارث الرابع أشهر ملوك العرب المتأخرين من بني غسان ، واعظمهم شأناً وقد خلع عليه الامبراطور جستنيان لقب بطريق وفيلارك (٥٢٩ م) وذلك على أثر ما أحرز من نصر على المنذر الحيري ، وجزاء لما أسدى من يد للروم في اخماد فتنة السامريين ، اما فيلارك العرب في فلسطين فكان يعرف بأبي كرب وقد شدّ أزرهم في تلك النائره فكافأه القيصر بعشرين الف أسير باعهم أرقاء للفرس والاحباش .

ولقد قاتل الحارث تحت قيادة بليساريوس ولكنه في الاوبة ركب غير الطريق التي سلكها جيش الروم فظنوا به الظنون ، وانه دلس عليهم الرأي ، وانّ له بالفرس صلة مستسرة ، وكذلك كان الروم يصدرون في معاملتهم للعرب عن ريبة تساورهم ، وحذر يملي عليهم ، فأخرجوا العرب من سجيتهم مكرهين ، وسلخوهم عن فطرتهم مرغمين .

لقد كان الحارث خصماً عنيداً للمنذر الحيري وهو المعروف بابن ماء السماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجد النعمان ابي قابوس آخر ملك لخمي في الحيرة ، وكان مثار النزاع في الاكثر بين الملكين العربيين تلك البادية الواقعة جنوبي تدمر ، فقد ادعاها كل منهما لنفسه ، وانه الحقيق وحده بجباية الاتاوة منها ، وقد تجدد القتال بين الحارث والمنذر في سنة ٥٤٤ م فوقع ابن الحارث أسيراً بيد المنذر فقدمه قربانا لآلهته العزى (افروديت) وفي خلال سنوات عشر من تلك الحرب الضروس نشبت المعركة الحاسمة بين الملكين فسقط فيها المنذر الحيرى قتيلا وصرع احد انجال الحارث الغساني ويقول العلامة نولدكي عنها انها هي وقعة الحيارين ويوم حليمة وانها معركة واحدة لا اثنتان ، وان حليمة ليست امرأة بل اسم مكان . وقد رحل الحارث في أواخر حكم جستنيان (٥٦٣) م الى القسطنطينية وفاوض القيصر فيمن يخلفه على سورية من اولاده ، وكان لهيبته سلطان كبير على ابن اخي القيصر جوستين ، وكان وليا للعهد ، فلما آل اليه الملك واصابه الخرف كان رجال البلاط يروّعونه باسم الحارث كلما نشز عليهم واعياهم امره ، وقد رجع الحارث من العاصمة الى سورية ومعه اسقف من القائلين ببدعة الطبيعة الواحدة ، رعاية لشعور قومه الديني ، فقد كانت تلك العقيدة بينهم فاشية ، ولفظ اسقف معرب (ابسكبيوس) باليونانية ، ومعناه رقيب او ناظر والمعروف عن الحارث انه قد توفي في غضون ٥٧٠ م بعد ان تولى الأمر اربعين عاما ، وقد ورد اسمه في الوثائق الكنسية لسنتي ٥٦٨ ، ٥٦٩ م .

كان الحارث كسائر العرب ، يهزه الأدب ، وله بصر بمذاهب الكلام ، وقد اتخذ المرقش الاكبر كاتبًا له ، ومما اوصاه في ذلك قوله «اذا نزع بك الكلام الى ابتداء معنى غير ما أنت فيه ، فصل بينه وبين ما تبتغيه من الالفاظ ، فانك ان مذقت الفاظك بغير ما يحسن ان تمذق به نفرت القلوب عن وعيها وملتها الاسماع ، واستثقلتها الرواة» .

ومن كلام المرقش يصف البادية والذئب

ودويّة غبراء قد طال عهدها ... تهالك فيها الورد والمرء ناعس
وتسمع تزقاء من البوم حولنا ... كما ضربت بعد الهدوء النواقس
ولما أضأنا النار حول شوائنا ... عرانا عليها اطلس اللون بائس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نبذت اليه حُزَّةً من شوائنا حياء ، وما خُشي على من اجالس
فآض بها جذلان ينفض رأسه كما آب بالنهب الكميُّ المخالس

ومن أخبار الحارث انه مر بافاريق من تغلب ، وكانت بنو تغلب قد لحقت بالشام بعد ثورتها على ملك العراق ؛ فلم يستقبلوا الحارث ، وركب عمرو بن كلثوم الشاعر التغلبي فلقيه فقال له الملك : ما منع قومك ان يتلقوني ؟ قال : لم يعلموا بمرورك ؛ قال : لئن رجعت لأغزونهم غزوة تتركهم ايقاظاً لقدومي ؛ فقال عمرو : ما استيقظ قوم قط الا نبل رأيهم ، وعزت جماعتهم ، فلا توقظن نائمهم .

جوستين الثاني والمنذر

ولما أفضى الأمر الى جوستين الثاني عمل على اغتيال المنذر نجل الحارث ، وكان قد خلف أباه ، وقاتل الفرس وعرب العراق تحت لواء الروم ، ولكن المؤامرة حبطت وثار المنذر على الروم سنوات ثلاثاً أغار الفرس في خلالها ومعهم أنصارهم من عرب الحيرة على سورية ، فأوفد طيباريوس ، وكان وصياً على العرش ، مفوضاً من القسطنطينية اسمه يوستنيانوس لعقد الصلح مع المنذر فاجتمع به عند ضريح القديس سرجيوس في الرصافة ، وكان ذلك القديس موضع احترام السوريين قاطبة ، وتم الصلح في صيف ٥٧٨ م وقد توفي جستين الثاني في هذا العام وقام بالامر بعده طيباريوس وكان اكثر تودداً للعرب ، فسافر المنذر الى القسطنطينية ومعه ولداه ولبس فيها التاج (٥٨٠ م) وكان القياصرة قبل ذلك لا ينعمون على العرب الا (بالاكليل) ثم انقلب المنذر الى سورية وهاجم عرب الحيرة الا انه لم يتجاوزهم الى ارض فارس فارتاب الروم بأمره ورموه بالتواطوء مع الفرس وكلفوا القائد ماغنوس في سورية ان يقبض عليه ، فدعاه الى احتفال في كنيسة حوارين وهناك اعتقله وأرسله مخفوراً الى العاصمة .

ثورة بني غسان

وقطعت الروم الاعانة المالية عن العرب ، فاستعرت لظى الثورة تحت زعامة النعمان النجل الاكبر للمنذر يعزره اخوته الثلاثة فاشاعوا الرعب في سورية جمعاء حتى انخلعت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منهم قلوب الحامية في بصرى فتخلت لهم عن الذخائر الحربية وغيرها من أموال ابيهم المودعة في بصرى ، فعبأ طيباريوس جنوداً أخرى وضعها تحت قيادة ماغنوس لقمع الثورة ، وكان مع الجيش اخ للمنذر أعده الروم تضليلاً للعشائر الغسانية ولكن المنية ادركته في الطريق فأسقط في يد القائد الرومي الا انه احتال على النعمان فدعاه الى المفاوضة السلمية فأجاب الدعوة ولكن ماغنوس غدر به فقبض عليه وأرسله الى القسطنطينية فبلغها في عهد القيصر موريقوس وكان يعامل فيها كأسير حر فانتشرت الفوضى بعد ذلك بين العرب السوريين ، وانقسموا حول شيوخهم شيعاً عزين ، حتى اذا زحف الفرس على الروم واثخنوا فيهم (٦١٣ — ٦١٤ م) لاذ العرب باذيال الحياد ، بل انضم بعضهم الى الفرس ، ولحق منهم عدد قليل ببلاد الروم ، الا ان هرقل أعاد تأسيس المملكة الغسانية (سنة ٦٢٩ م) ونصب عليها جبلة ابن الأيهم ولكن الطلائع العربية كانت في خلال ذلك قد أخذت تحت راية الاسلام تقرع بظبات سيوفها ابواب مملكته من الجنوب .

العرب والفرس

اما فارس فشمرت لطرد العرب من العراق بعد ان بثوا المستعمرات العربية على حدود الفرثيين وتفاقم امرها حتى شملت الارض التي عرفت فيما بعد بالسواد ، فحاصر ازدشير اول ملوك بني ساسان المستعمرة العربية المعروفة باسم (الحضر) ثم ان ابنه سابور انتصر على العرب (٢٤٠ م) ولكنه عي باخراجهم من البلاد فعقد اتفاقاً معهم ينص على ان يتناول العرب اعطيات مالية من الملك الأعظم وان يخضعوا له ، وان يدافعوا عن الحدود قال الشاعر :

أقفر الحضر من نضيرة فالمر باع منها فجانب الثرثار

والثرثار واد عظيم بين سنجار وتكريت كانت فيه منازل بكر بن وائل واختص باكثره بنو ثعلب منهم وبر بالحضر ثم يصب في دجله قال عدي بن زيد .

واخو الحضر اذ بناه واذ دجلة تجبى اليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلساً فللطير في ذاره وكور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نظام الاستعمار الفارسي

لقد كانت المملكة الفارسية تتألف من ولايات شتى يتولى شؤونها رئيس يكون مسؤولاً لدى الملك الاعظم وقد تنتخب الولاية رجلاً ينصبه الملك وقد يولي غيره ، وقديمًا تم تكوين الجالية اليهودية تحت زعامة رئيسهم في الاسر جرياً على هذه القاعدة ، وعندما عظم أمر المسيحيين انفردوا بولاية مستقلة تحت رئاسة سلوقية ، فعاهل فارس وان كان في الظاهر مستبداً الا انه كان يحكم المقاطعات المترامية الاطراف وفقاً لرغبة أهلها بخلاف ما كانت عليه دولة الروم من تزمت في الادارة وضيق عطن ، ولذلك استمتع العرب تحت حكم فارس بنوع من (الحكم الذاتي) واسع النطاق ، فكان لهم استقلالهم تحت سيادة ملوكهم ، وكانت التزاماتهم للملك الاعظم تجري طبقًا لميثاق يعقد ، فكان الملك الاعظم يختار على العرب ملكاً من لخم أرباب القصور والحضارة ، اما بنو تنوخ فكانوا من سكان الخيام . ولقد بلغ من علو شأن العرب عند الفرس ان ملك فارس يزدجرد الاول (٤٢٠ م) بعث ابنه الاكبر بهرام الى الحيرة لينشأ فيها على البطولة والفروسية ، ولكي ينعم بالهواء الطلق ولذة الصيد ، وقد سمت الحيرة الى اوج العظمة في عهد المنذر الثالث ، وعندما عقدت مملكة الروم صلحًا مع كسرى انوشروان (٥٣٢ م) دفعت غرامة لملك فارس ومثلها لملك العرب المنذر .

الموقف الداخلي في بلاد العرب

لقد كانت مملكة حمير في مطلع القرن السادس بعد الميلاد مشرفة على الزوال ، وكانت حكومة نجران في اليمن قد دبّ اليها هي الاخرى الضعف وكانت تتألف من أمير يلقب بالعاقب ، ووكيل يعرف بالسيد ، ومن اسقف ينظر في أمور الدين ، وكان ملوك القسطنطينية قد شرفوا العاقب ومولوه ، وبنوا له الكنائس ، وبسطوا عليه الكرامات ، لما يبلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينه ، ولذلك كله خلا المجال (لملك الحيرة العربي) وأصبح (سيد العرب) في القسم الجنوبي من الجزيرة وخضعت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

له معظم القبائل في أواسطها ، وكان سلطان الفرس مرتبطاً بذلك التوسع والنفوذ ، فأصبحت السيادة لفارس على الجنوب الشرقي من الجزيرة ، وعلى الجنوب الغربي منها ، فلا غرابة والحالة هذه اذا رأينا الملك عمرو بن هند يشير الى البحرين ، وهي عنه البعيدة النائية بأنها تحت حكمه ، وداخلة في نطاق أعماله ، ويأمر المتلمس وطرفة الشاعرين الشهيرين بالسفر اليها ، لقبض الجائزة من عامله عليها ، وقد حمّلهما اليه كتاباً منه ، وانكم ايها السادة لتعلمون ان المتلمس انكر تلك الصحيفة فدفعها الى غلام من اهل الحيرة يقرؤها له ، لأنه كان أمياً ، فاذا فيها (أما بعد فاذا اتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً) فقذف المتلمس بالصحيفة في اليم وهرب الى بصرى وأخذ يهجو الملك ابن هند ، وكان قد بلغه ان الملك كان يقول: (حرام عليه حب العراق ان يطعم منه حبةً ولئن وجدته لأقتلنه) وكان مما قاله المتلمس :

يا آل بكر الا لله امكم ... طال الثواء وثوب العجز ملبوسُ
أغنيت شاتي ، فأغنوا اليوم تيسكم ... واستحمقوا في مراس الحرب او كيسوا

ثم قال :

آليت حب العراق الدهر احرمه ... والحب يأكله في القرية السوس
لم تدر بصرى بما آليت من قسم ... ولا دمشق اذا ديس الكداديس

وقال عن الصحيفة :

قذفت بها في اليم من جنب كافر ... كذلك التي كل رأيٍ مضللِ
رضيت بها لما رأيت مدادها ... يجول به التيار في كل جدول

أما طرفة فانتهى الى البحرين وأمضى فيه العامل أمر الملك ، وقد رثته أخته الخرنق فقالت :

عددنا له خمساً وعشرين حجة ... فلما توفاها استوى سيداً ضخما
فجعنا به لما انتظرنا ايابه ... على خير حال لا وليداً ولا فحما

ولقد كان عمرو بن هند هذا على مافيه من قسوة وعتو ، وهو الملقب بمضرط الحجارة ، يروقه الشعر ويطرب لانشاده ولما انشده الحارث بن حلزة قصيدته. وكان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بينهما سبعة ستور اعجب الملك بمنطقه وكانت هند ام الملك تسمع ، فقالت لابنها (تالله ما رأيت كاليوم رجلاً يقول مثل هذا القول يكلم من وراء سبعة ستور) فقال الملك (ارفعوا ستراً وادنوا الحارث) وما زالت هند يزيد اعجابها به ، والملك يقول ارفعوا ستراً وادنوا الحارث حتى ازيلت الستور السبعة ، واقعده الملك قريباً منه ثم اطعمه من جفنته وأمر ان لا ينضح اثره بالماء لأن الحارث كان به وضح أي برص ، واطلق الملك السبعين بكرياً الاسرى ودفعهم الى الحارث ، وفضل قصيدته على قصيدة عمرو بن كلثوم ، فعاد التغلبيون الى أحيائهم ومعهم شاعرهم وهم يحملون في جوانحهم للملك كل ضغن ، ولبثوا كذلك ماشاء الله حتى جمعهم الملك مرة أخرى فثاروا عليه وانتهبوا رواقه ، وساقوا نجائبه ، وعلاه عمرو بن كلثوم بالسيف فأودى به .

الممثل الفارسي

أما الممثل الفارسي فكان بمنزلة المندوب السامي في السياسة الحاضرة ، ومقامه في صنعاء ومنها يشرف على سائر اليمن وعمان والبحرين ، ويمتد نفوذه الى الصميم من نجد عن طريق اليمن وذلك ان كندة من القبائل القحطانية كانت قد التفت حولها قبائل بني بكر من اليمامة في أواسط القرن الميلادي الخامس لاتساع شقة الخلاف بين البكريين ، فأجمع عقلاؤهم على أن يولوا منهم ملكاً يختاره لهم سيد اليمن نفسه فانتقى لهم رجلاً من كندة اسمه حجر وهو والد امرئ القيس الشاعر الكبير فذهب الى نجد وجمع البكريين تحت لوائه .

حكاية عجيبة

ومن أعجب ما حدثتنا به السير أن أحد ولاة فارس في صنعاء وهو المسمى باذان أوفد بعض الجند الى الرسول الأعظم ﷺ في المدينة المنورة ، ولم يوفد اليه جيشاً لجباً بل رجلين اثنين من رجاله لأن الحجاز كانت من (مناطق نفوذه) ولذلك لم تنكر قريش على باذان ما فعل ولا وقع لديها أمره موقع الاستغراب بل فرحت برؤية جنديه وظنت بالله الظنون فانه لما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كتب كسرى الى باذان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عامله على اليمن (بلغني ان في أرضك رجلاً تنبأ فابعث به الي) فبعث باذان قهرمانه وهو بانويه وكان كاتبًا حاسبًا وبعث معه برجل من الفرس يقال له خرخسره فكتب معهما الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره ان ينصرف معهما الى كسرى وقال لبانويه (ويلك انظر ما الرجل وكلمه وائتني بخبره) فلما بلغا الطائف وكان فيه حينئذ جمع من أشراف قريش مثل أبي سفيان وصفوان بن امية وغيرهما فسألا عن النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا انه يثرب فلما سمع ابو سفيان وصفوان بن أمية مضمون كتاب باذان فرحا وقالا (مثل كسرى قام بعداوته) وقدم بانويه وخرخسره المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قدما عليه انزلهما وامرهما بالمقام أيامًا ثم أرسل لهما ذات غداةٍ ولما دخلا عليه قال لهما (اجلسا) فبركا وجلسا على ركبهما وكلمه بانويه وقال (ان شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك وقد بعثني اليك لتنطلق معي فان فعلت كتب فيك الى ملك الملوك بكتاب ينفعك ويكف عنك به وان أبيت فهو من قد علمت وهو مهلك قومك ومخرب بلادك) وأعطياه كتاب باذان ولما اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على كتاب باذان وسمع حكايتهما تبسم ودعاهما الى الاسلام ثم قال لهما (ارجعا حتى تأتياني غداً) فلما أتيا الى النبي صلى الله عليه وسلم من الغد قال (ان ربي قد قتل الليلة ربكما بعد ما مضى من الليل سبع ساعات ، سلط عليه ابنه شيرويه حتى بقر بطنه ،) وكانت تلك الليلة ليلة الثلاثاء العاشرة من جمادى الاولى من السنة السابعة من الهجرة ثم قال (اذهبا واخبرا صاحبكما — يعني باذان — بهذا الخبر) فقالا (هل تدري ما تقول ؟ انا قد نقمنا منك ماهو أيسر من هذا أفنكتب بها عنك ونخبر الملك) قال النبي (نعم أخبراه ذلك عني وقولا له ان ديني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهي منتهى الخف والحافر وقولا له انك ان اسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الابناء) ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى خرخسره منطقة فيها ذهب وفضة كان أهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتى قدما على باذان وأخبراه الخبر فقال (ما هذا بكلام ملك واني لأرى الرجل نبيًا كما يقول ولننظرن ما قد قال فلئن كان ماقاله حقًا سيأتي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخبر الي يوم كذا ولا كلام انه نبي مرسل ولا يسبقني عليه أحد من الملوك في الايمان به ، وان لم يكن فسنرى فيه رأينا) فلم يلبث باذان ان قدم عليه كتاب شيرويه (أما بعد فاني قتلت كسرى ولم أقتله الا غضباً لفارس لما كان استحل من قتل اشرافهم فتفرق الناس فاذا جاءك كتابي فخذ لي الطاعة ممن قبلك وانظر الرجل الذي كان كسرى كتب اليك فيه فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه) فلما انتهى كتاب شيرويه الى باذان قال (ان هذا الرجل لرسول الله حقاً) فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس من كان منهم باليمن وبعث باذان بإسلامه واسلام من كان معه الى رسول الله ﷺ .

امرؤ القيس ورحلته الى قيصر

لقد كان العرب في ذلك الزمن الغابر كلما ضاقوا ذرعاً بالمسيطر عليهم من غير بني جنسهم فزعوا الى خصمه ولذلك سافر امرؤ القيس الى القسطنطينية بعد مقتل ابيه مستصرخاً القيصر « جوستنيان » على بني أسد ، وعلى المنذر ملك العراق ، فوعده القيصر خيراً ثم عرض عليه أن ينصبه أميراً على فلسطين فأبى امرؤ القيس تلك الامارة وكرّ راجعاً الى نجد ومات في أنقره .

ان في سفر امرئ القيس الى العاصمة الرومية لدليلاً على معرفة العرب باستغلال العداوة القائمة بين الروم والفرس ، وبرهاناً على علمهم بأسباب النزاع بين الدولتين ، فقد طمع امرؤ القيس في نصرة الروم له لما وقر في نفسه من أنهم يرغبون في ان يصيبوا من أعدائهم الفرس مقتلاً من مقاتلهم الاقتصادية ، وان امرأ القيس لم ينس أن يشيد بما عنّ له من ضروب الطرف التجارية في قصيدته الرائية فذكر السنا ، والمسك الموضوع في حقة يمانية ، والبان والعود والبخور المدخن وذلك في قوله :

وريح سنا في حقة حميرية تخص بمفروك من المسك اذفرا
وبانا ، والوّيا من الهند ذا كيا ورنداً ولبنى والكباء المقترا

ولقد كان لبني أسد النصيب الأوفر ، في اخفاق امرئ القيس عند قيصر ، فقد دسوا اليه وفداً منهم أتى القسطنطينية وعلى رأسه الطماح بن قيس فأفسد رأي القيصر في امرئ القيس ، وحمله على التبرم به والاعراض عنه قال امرؤ القيس :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسني من دائه ما تلبسا
الا ان بعد العدم للمرء قِنوة وبعد المشيب طول عمر وملبسا

وقد رزئ امرؤ القيس ببعض أصحابه في الطريق الى قيصر فمات منهم الحارث ابن حبيب السلمي فرثاه بقوله :

ثوى عند الودية جوف بصرى ابو الايتام والكل العجافِ
فمن يحمي المضاف اذا دعاه ويحمل خطة الانس الضعاف

والودية النخلة الصغيرة ، وقد بكى رفيقه عمرو بن قميئة شاعر بني بكر المشهور وهو المعني بقوله :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبكِ عينك انما نحاول ملكاً او نموت فنعذرا

منازل بني أسد والحارث الاعرج

ولقد كانت منازل بني أسد تقع الى الجنوب من تيماء اي الى الشرق من الطريق التجارية الكبرى وكانت قبائل بني عذرة ، وجذام ، وبلي ، منتشرة على طول تلك الطريق التي أصبحت اليوم طريق الحجاج من معان الى المدينة وأما سلاسل الجبال اجأ ، وسلمى ، وعوارض ، فكانت تشرف من الغرب والجنوب على بني أسد الذين تؤلف منازلهم التخم الشمالي لعنزة والنمر النازلين على الطريق المؤدية من ناحية الجنوب الى فلسطين وسورية . قال حسان بن حنظلة الطائي :

غضبت علي ان اتصلت بطيءٍ وأنا امرؤ من طيءٍ الاجبالِ

أي اجاء وسلمى وعوارض . وأما بنو كلب وهم قبيلة يمانية كذلك فتنزل في الشمال وفي الشمال الشرقي من مواطن تلك القبائل اعني في المنخفضات التي تعرف اليوم باسم الجوف ووادي السرحان ؛ وكانت كثبان الرمال المترامية التي تسمى اليوم صحراء « النفود » هي الحاجز بين تلك القبائل اليمانية وبين بني أسد ، وكانت ديار بني أسد هدفاً لهجوم الغسانيين عليهم ، وأشهر من غزاهم الملك المعروف في القسطنطينية باسم (الحارث الاعرج) وقد مزق شملهم بجيوش جهزها عليهم خاصة لاعتدائهم بالغارة بعد الغارة على الحدود (٤٩٧ — ٥٠١م) ولجأت بقية السيوف منهم الى اوزاع غيرهم من اخوانهم الآخرين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال شاعر بني أسد عبيد بن الابرص يذكر الحارث الاعرج :

نحن قدنا من أهاضيب الملا ال خيل في الارسان امثال السعالي
فانتجعنا الحارث الاعرج في جحفل كالليل خطار العوالي

ثم يصف ديار بني أسد فيقول :

ولنا دا ر ورثنا عزهـا م الاقدم القدموس عن عم وخال
مالنا فيها حصون غيرما م المقربات الجرد تردي بالرجال

وقال عن بني غسان :

بجحفل كبهيم الليل منتجع ارض العدو لهام وافر العددِ
وكل أجرد قد مالت رحالته نهد المراكل فعم ناتيءُ الكتد
حتى تعاطين غساناً فخربهم يوم المرار ولم يلووا على احد
غوت بنو أسد غسان أمرهم وقل ما وفقت غسان للرشد

وقال فيهم :

وجمع غسان لقيناهم بجحفل قسطله ذائلُ

وقال يسخر من امريءُ القيس وذهابه الى قيصر

ياذا المخوفنا بمقتل شيخـه حجر تمني صاحب الاحلامِ
ازعمت أنك سوف تأتي قيصراً فلتهلكن اذا وأنت شآم

وقال يعيره :

وأنت امرؤ ألهاك دف وقينة فتصبح مخموراً وتمسي كذلكا
ظللت تغني ان اصبت وليدة كأن معداً أصبحت في حبالكا

أما امرؤ القيس فأودع دروعه عند السموأل بن عادياء فجعلها في قصره الابلق بالقرب من تيماء ولما ذاعت الانباء بوفاة امريءُ القيس ظهر الحارث الغساني امام الابلق بصفة أنه حامي الحدود الرومانية وطلب الدروع من السموأل وهدده ان لم يفعل بقتل ابنه على مرأى منه ومسمع ، وكان قد قبض عليه خارج الحصن أثناء عودته من الصيد فأبى السموأل تسليم الدروع وقتل الحارث ابنه ونكص عن الحصن يجر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أذيال الخيبة أما حجة الحارث فكانت تقوم على أن امرأ القيس أصبح من (التابعية الرومانية) بطلب مساعدة القيصر ، وأما الحارث فقد أصبح بصفة كونه ممثل الامبراطورية على حق في ان يرث امرأ القيس .

النظام العسكري في الحيرة

أما النظام العسكري فليس لدينا نبأ عنه مسهب الا ما كان منه في بلاط النعمان بن المنذر ، فقد كانت للنعمان كتائب خمس وهي الرهائن — والصنائع — والوضائع — والاشاهب — ودوسر .

أما الرهائن فكانوا خمسماية رجل رهائن لقبائل العرب ، يقيمون على باب الملك سنة ثم يستبدلون بخمسماية آخرين وينصرف أولئك الى احيائهم ، فكان الملك يغزوبهم ويوجههم في اموره

أما الصنائع فبنو قيس وبنو تيم اللات ، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه أي أنهم كانوا له « الحرس الخاص » .

اما الوضائع فكانوا الف رجل من الفرس يضعهم ملك فارس في الحيرة نجدة لملك العرب وكانوا كذلك يقيمون سنة ثم يخلفهم الف رجل وينصرف أولئك الى ديارهم إي انهم كانوا « جيش الاحتلال » .

أما الاشاهب فأخوة ملوك العرب وبنو عمه ومن يتبعهم من أعوانهم وسموا الاشاهب لأنهم كانوا بيض الوجوه ، قال الاعشى :

وبنو المنذر الاشاهب في الحير ة يمشون غدوة كالسيوف

وأما دوسر فكانت اخشن كتائب الملك وأشدها بطشاً ، ومن كل قبائل العرب ، ومعظمهم من ربيعة ، وكانت دوسر تعد أربعة آلاف رجل ، وسميت دوسراً اشتقاقاً من الدسر ، وهو الطعن بالثقل لثقل وطأتها .

وكان الملك في رأس كل سنة من أيام الربيع يأتيه وجوه العرب وأصحاب الرهائن وقد صير لهم أكلاً عنده وهم (ذوو الآكال) فيقيمون عنده شهراً ويأخذون آكالهم ويبدلون رهائنهم وينصرفون الى احيائهم .

(يتبع)

فؤاد الخطيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net